ISSN: 2663-5798 || Arab Journal for Scientific Publishing

الإصدار السابع – العدد ثلاثة وستون
تاريخ الإصدار: 2 – كانون الثاني – 2024م
www.ajsp.net

"الشعر العربي القديم أنظار في التفاعلات المرجعية عند جلال الدين السيوطي"

إعداد الدكتور:

أحمد طايعي

أستاذ الشعر العربي والمناهج النقدية المعاصرة

الكلية متعددة التخصصات بالرشيدية/ جامعة مولاي إسماعيل (المغرب)

AJSP
المجلة العربية للنشر العلمي
ISSN: 2663-5798 || Arab Journal for Scientific Publishing
الإصدار السابع – العدد ثلاثة وستون
تاريخ الإصدار: 2 – كانون الثاني – 2024م
www.ajsp.net

الملخص

لاشك أن قصيدة كعب بن زهير" بانت سعاد"، قد استجابت لقراءات متنوعة عبر تاريخ تلقيها الطويل، بتعدد أصناف القراء وتنوع أسئلتهم الجمالية، فكانت في كل محطة تاريخية تبني أفق توقعها الخاص، لذلك أقمنا دراستنا هذه، على فرضية نتصور خلالها الدور الذي لعبه نص القراءة، عند جلال الدين السيوطي (ت911هـ)، في إنتاج وإعادة إنتاج نص الكتابة الشعرية لدى كعب بن زهير.

من أجل ذلك جاءت الشكلية المنهجية للدراسة، مركبة من جهازين قرائيين، استحسنا النظر إليهما عبر مستويين متكاملين ومندغمين؛ وهما: مستوى القراءة الحفرية التوثيقية، ومستوى المجال الدلالي للقول الشعري، وعلاقتهما بالتفاعلات المرجعية. وقد خلصت الدراسة إلى أن تجربة القراءة الشعرية لدى السيوطي، لا تكمن في نص اللامية منظورا إليه في تفرده، ولكن في ذخيرته الخارج نصية، التي تشمل القيم والمعايير الاجتماعية والتاريخية والشرعية، وسياقاتها الثقافية بعامة.

الكلمات المفتاحية: الشعر العربي، التفاعلات، المرجعية، القراءة، التوثيق، السيوطي.

المقدمة وفرضيات الدراسة:

أردنا لهذه الدراسة أن تكون مساهمة في تفسيح النظر التأويلي، الخاص بأوجه التفاعلات المرجعية ومنطلقاتها التأسيسية، في قراءة جلال الدين السيوطي لقصيدة كعب بن زهير" بانت سعاد". وبغية تحقيق ذلك، حاولنا صياغة بعض الأسئلة، التي تفترضها مقاربتُنا للتفاعل القائم، بين اللامية ومعطيات توثيقها من جهة، وبين اللامية والخارج نصي من جهة ثانية؛ وهي على الصورة الآتية:

كيف لنص كعب بن زهير أن يتفاعل مع معطيات تاريخية، وشرعية وسياسية، وسوسيو ثقافية في بناء ذاته ؟ وكيف تُموضِع هذه المعطيات ذاتها، ضمن أفق التجربة الشعرية الزهيرية ؟ وهل القراءة المنتجة لدى السيوطي، هي في اعتبار نسق اللامية بما يتفاعل معه في الواقع المعيش؛ أي بما يحقق إقرارا ضمنيا بعيار الاستدلال بالمعلوم والمتفق عليه– الوقائع والأحداث التاريخية التي عايشها كعب بن زهير مع الرسول، بهجائه وإيذائه للرسول، وما استتبع ذلك من إخبار لكعب بهدر دمه، مرورا بالاعتذار، وصولا إلى العفو عنه–(السيوطي، 2005، ص 103–110) على المجهول والمختلف فيه من الزمن الشعري الخاص باللامية؟ ثم ما نصيب القراءة التوثيقية في بناء معاني اللامية، واستجلاء مجمل تمظهرات الاختلال التي مست، صورتها الأصلية بتواتر الرواية وتعاقب التأويل المختلف ؟

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في مدى تحصيل المعرفة بضوابط ومستويات التفاعلات المرجعية في بناء النص الشعري؛ وذلك من خلال بيان مكونات القراءة الحفرية التوثيقية لقصيدة" بانت سعاد" لكعب بن زهير؛ وما ترتب عن هذا القول الشعري من تأويل لمستوياته الدلالية، عند عالم مشارك، هو جلال الدين السيوطي.

منهجية الدراسة وإجراءاتها:

اختارت الدراسة استثمار العديد من المفاهيم النظرية والأدوات المنهجية، التي تعتقد بنجاعة رؤيتها النقدية. وهي قائمة، في المنجز النقدي للشعرية العربية القديمة، أولا. ومتحققة، ثانيا، في إنجازات بعض رواد النظرية النقدية الغربية؛ من أمثال: جيرار جينت، وبيير

زيما، وطروحات مدرسة كونسطانس الألمانية. كما اختارت الدراسة أن تجعل مجمل هاتيك المفاهيم والأدوات المنهجية الموظيفة، ملتبسة، بإجراءات تحليل مكونات القراءة الجمالية عند جلال الدين السيوطي، من خلال شرحه للامية كعب بن زهير.

أدبية الدراسة:

من الدراسات التوصيفية والتحليلية، التي واكبت منهاج التلقي النقدي عند السيوطي؛ نذكر:

تحليل النص الشعري عند جلال الدين السيوطي" قصيدة بانت سعاد نموذجا"، لأنس عطية الفقي، منشورات مجلة جامعة مصر للدراسات الانسانية، مجلد 2، سنة 2022.

الدراسة التي صدر به محقق كتاب جلال الدين السيوطي " كنه المراد في بيان بانت سعاد"، الباحث مصطفى عليان، منشورات مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2005، بيروت.

مدخل إلى مرتكزات القراءة المرجعية.

ثمة معطى، نحسبه ذا قيمة أساسية في هذه الدراسة؛ وهو أن الشعر العربي القديم تعرض، منذ البدايات الأولى لنشأة الشروح الشعرية واتساع دائرة الكتابة، إلى أصناف شتى من القراءات والتفاسير؛ فكان في كل محطة تاريخية يواصل تفاعله المنتج مع متلقيه. بل إنه كان في تنوع زوايا التلقي، واختلاف مؤديات التأويل، يتمسك ب" عموديته"؛ هاته التي تضمن له مزيد اقتدار على مواصلة إثارة دهشة القراء عبر التاريخ، فيما تكون رسالته الشعرية قد فقدت راهنيتها.

لقد تسانحت الأسباب وذللت، في أن قامت طائفة من العلماء الرواة والشراح والنقاد، في القرون الهجرية الأولى ؛ من أمثال عمرو بن العلاء، وحماد الراوية، والمفضل الضبي، وخلف الأحمر، وأبي قريب الأصمعي، ومحمد بن سلام الجمحي..، فتلقوا التراث الشعري العربي، ثم مضوا يؤسسون مرتكزات القراءة الحفرية التوثيقية؛ فيَجْمَعون ويُضيفون إليه مالم يكن فيه، مما ثبتت لهم صحتُه، وينفون عنه ما ثبت لهم زيفُه وفسادُه، عبر التثبت والتحقيق والتمحيص والمدارسة1. فخلف من بعدهم خلف من العلماء بالشعر العربي في القرون المتتالية؛ من أمثال الأخفش الأصغر، وابن الأنباري، ، وابن جني، وأبي العلاء المعري، وأبي علي المرزوقي، وابن معقل الأزدي، وطه حسين، وطه أحمد إبراهيم، ويوسف خليف، ويوسف اليوسف، ومحمد نجيب البهبيتي، ومصطفى ناصف، وكمال أبو ديب، وإحسان عباس، وعبد الله الطيب، ومحمد مفتاح، وإدريس بلمليح،2..

من هؤلاء العلماء الصُبُر، اخترنا جلال الدين السيوطي(ت911هـ)، وتلقيه لقصيدة الشاعر كعب بن زهير" بانت سعاد". إن مقصد الانشغال بهذه القراءة، متأت من جهة رصد الإختيارات المنهجية لهذا العالم، والكشف عن مؤدياتها التأويلية. من أجل ذلك جاءت شكليتها المنهجية لدى السيوطي، مركبة من جهازين قرائيين، استحسنا النظر إليهما في خلال مستويين متكاملين ومندغمين؛ وهما:

مستوى القراءة الحفرية التوثيقية ؛

1 - انظر: مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ناصر الدين الأسد، ط5- 1978، ص: 477.

2 - طايعي، أحمد (2022)، الشعر العربي مجاري التلقي ومستقرات التأويل، ص 17.

ومستوى المجال الدلالي للقول الشعري وعلاقته بالتفاعلات المرجعية.

هذا، وإذ المساهمة العلمية على هذه الصورة، فلعلنا لا نجانب الصواب حينما نذهب إلى القول، بأن فهما معمقا لحضور مكون" التفاعلات المرجعية " في قصيدة كعب بن زهير، مرتبط أشد ما يكون الارتباط، أولا، بفهم مضاعف للعلاقة التفاعلية، بين الذات الشاعرة الأصلية لتلك القصيدة، وبين الجهاز القرائي الذي وظفته الذات المتلقية، لفهم وتأويل مقاصد القول الشعري؛ نقصد: إدراك المرجعيات التأسيسية المتنوعة والمختلفة؛ التي يجري فيها بناء الأبعاد والرؤى الجمالية لظاهرة تداخل النصوص الشعرية وتفاعلها، مع غيرها من نصوص الوجود. وثانيا، هو محوج إلى بيان الخلفيات التي كانت تقف وراء البحث في مرتكزات القراءة التوثيقية لقصيدة "بانت سعاد"، موضوع التلقي.(طايعي، 2009، ص 101–104).

إن التفاعلات المرجعية الخاصة بقصيدة بانت سعاد، هي في كثير من تمظهراتها، صعبة الحصر والتعيين. ومع هذا، فالذي ينظر نظر تدقيق إلى المنهاج الذي يسلكه " تحقق" المعاني الشعرية لدى جلال الدين السيوطي، لن يجد كبير نصب في أن يربطه بتصوره النقدي المتكامل– لمفهوم الصناعة الشعرية؛ والتي تتخلق– ضمن ما تتخلق فيه، من رحم القراءة التوثيقية لنص اللامية أولا، ومن تناصه مع نصوص الوجود، ثانيا. إن الفضاء الرحب الذي تشغله قراءة السيوطي، لأشكال توثيق نص اللامية، وكذا تناصه بغيره من النصوص التاريخية، بالأزمنتها وأمكنتها وأحداثها ووقائعها الاجتماعية، يجعل منه متلقيا مُبَنْيَنًا3،(الخطيب،1987،ص 15). في مجموع أبيات القصيدة التي ساهم في إنتاج معانيها، وأبان عن شرائطها ومنطلقاتها التأسيسية.

لقد أفضى بنا هذا الفهم، إلى الاعتقاد بأن اشتغال مستويات التفاعل المرجعي في قراءة السيوطي لقصيدة كعب بن زهير، إنما تحقق إنجازا، وبصرف النظر عن المستويات البنائية الداخل نصية– بالاعتماد على التفاعل الحاصل، بين الصناعة الشعرية والمعطيات الخارج نصية" Extra–textuelle"؛ التاريخية والشرعية والاجتماعية والسياسية والسوسيوثقافية بعامة.

إن المعتبر عند السيوطي في مسألة التفاعل، بين معنى اللامية ومرجعها، هو أن دلالات قصيدة بانت سعاد يتوقف إدراكها، على مدى استحضار نصوص غائبة، نحددها على الصورة الآتية:

أمور خارجية. وهكذا، ميز بين ضربين من المعاني.

الأول: يتمثل في تلك المعاني التي لا يحتاج فيها إلى أمر خارجي من صناعة أو قصة؛ وهي معاني مشتركة وشائعة بين عامة الناس.

أما الضرب الثاني، فيتمثل في تلك المعاني التي يحتاج فيها إلى أمر خارجي؛ وهي على صنفين:

إما أن تكون العبارة عن المعنى بلفظ مأخوذ من صناعة ما؛ وهي مرذولة في الشعر؛

وإما أن يكون المعنى، متأت من جهة قصة ما؛ أي ما استند فيه بحث الفكر إلى كلام جرى في تاريخ أو حدث، أو منثور.(القرطاجني،1981، ص189، وأديوان، 2004، ص 39– و83).

إن هذه التقسيمات، من شأنها أن تضعنا في صلب اشتغال مستويات التفاعلات المرجعية في قراءة السيوطي للامية كعب بن زهير؛ والتي لا تعدو أن تكون نمذجة مفتوحة على احتمالات تأويلية كثيرة؛ وذلك لاعتبار حيازتها على معطيات، تجمع بين الشعري والتاريخي والشرعي والسياسي والسوسيو–ثقافي. إنها مستويات يمكن أن تدرك، بأولية" المقايسة" في توفية حظوظ التقاطع والتفاعل، بين نص مؤسِّس، وآخر مؤسَّس(طايعي، 2007ص 179)؛هي قصيدة الشاعر.

مرتكزات القراءة الحفرية التوثيقية

بنية الإسناد في الرواية الشعرية

توثيق القول أو الكلام يفيد "نسبتَه وإسنادَه" إلى قائله، أو مصدره، الذي انبثق منه أو روي عنه، قصدا إلى إثبات كلامه وترسيخ قوله على وجه الصحة. والنسبة والإسناد يتحدان في المقصد، من حيث النقل والتبليغ والاحتياط للمنقول بالصواب والصحة، وهما بهذا المعنى يمثلان شهادة الزمن على التواصل والاستقرار والامتداد، بين راوي الشيء وصاحب الشيء المروي (عليان، 1992، ص 211).

إن الهم المركزي الذي يحكم فعل التوثيق، يتحدد أساسا، في ما ينطوي عليه من إجراءات تقنية تسعف المتلقي، بصيغة أو بأخرى، في ضبط الأثر الفني ضبطا صحيحا. إن المكون التوثيقي هو مجمل الوحدات المنهجية التي تعمل على ضبط الأثر الفني بنوع من الدقة المتناهية؛ وذلك بقصد الحفاظ على الصورة الأصلية للأثر حتى يتمكن المقصد من تأسيس وضع تواصلي يكفل له تفاعلا حيويا بينه وبين الباث، من جهة، ثم بينه وبين الرسالة الشعرية، من جهة ثانية (بلمليح، 1995، ص 293.)

يقول جلال الدين السيوطي مذكرا بأسانيد رواية قصيدة كعب بن زهير وطُرقِها:(وأنشد:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول

هو من قصيدة كعب بن زهير بن أبي سلمى التي أولها: (بانت سعاد). أخرج الحاكم في المستدرك وصححه، والبيهقي في دلائل النبوة، من طريق إبراهيم بن المنذر، حدثنا الحجاج بن ذو الرقيبة بنُ عبد الرحمن بن كعب بن زهير المزني، عن أبيه، عن جده: أن أباه كعبا وعمه بجيرا خرجا حتى أتيا أبرق العراق، فقال بجير لكعب: اثبت في هذا المكان حتى آتي هذا الرجل، يعني النبي، صلى الله عليه وسلم، فأسمع ما يقول. فجاء فأسلم، فبلغ ذلك كعبا، فقال:

ألا أبلغا عني بجيرا رسالة على أي شيء ويب غيرك دلكا

على خلُق لم تلفِ أُما ولا أبا عليه ولم تدرك عليه أخا لكا

فلما بلغت الأبيات رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هدر دمه فقال: من لقي كعبا فليقتله. فكتب بذلك بجير، إلى أخيه، قال: اعلم أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لا يأتيه أحد يشهد أن لا إله إلا الله إلا قبل ذلك، فأسلَمَ وقال قصيدته (بانت سعاد)..وساق الحاكم القصيدة كلها..

وأخرج الحاكم والبيهقي والزبير بن بكار في أخبار المدينة، من طريق علي بن يزيد ابن جدعان، قال: أنشد كعب بن زهير رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، في المسجد: (بانت سعاد). وأخرجه في الأغاني بلفظ: (في المسجد الحرام) لا مسجد المدينة. وأخرج الحاكم والبيهقي عن موسى بن عقبة، قال: لما بلغ إلى قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

في فتية من قريش قل قائلهم ببطن مكة، لما أسلموا: زولوا

أشار الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى الخلق ليسمعوا.. قال ابن سلام: كان كعب بن زهير فحلا مجيدا، قلت لخلف: بلغني إنك تقول: كعب أشعر من زهير؟ قال: لولا أبيات مديح لزهير كثر أمرهن لقلت ذلك). (السيوطي، بلا طبعة، ص 524– 527).

إن ما نريد بيانه من هذا النص الوثيقة، يتحدد أساسا في أن عملية التواصل القائمة بين صاحب البردة ومتلقيها السيوطي، من ناحية. ثم تفاعل هذا الأخير – عبر رد فعله– مع الطاقات الفنية الكامنة خلف البردة من ناحية أخرى، لا يمكنهما التحقق بصورة إيجابية وبناءة، إلا من خلال احتماء السيوطي بسلطة أجهزة القراء السابقين. ونحسب أن هذه العملية تتوقف، بل تستلزم إثبات سلسلة العلماء الرواة، سواء بالسند المرسل أو المنقطع،(الأسد، 1978،276–285)، الذين انتدبوا أنفسهم لقراءة النص الشعري والتفاعل مع أبعاده الفنية والجمالية، فأبانوا من خلال ذلك، عن ردود أفعال جد متباينة، تباين خلفياتهم المرجعية وتمايز حتمياتهم التاريخية.

هذا، ولما كان المكون الإسنادي في الرواية الشعرية قد عمل على تنظيم عملية التواصل التفاعلي، بين البنيات النصية وردود الفعل التوثيقية عند السيوطي؛ هذا الذي لم يكن باستطاعته، من ناحية أخرى، الانزياح عما بناه وأسسه القراء السابقون، بتنوع مرجعياتهم الإسنادية، تجاه قصيدة كعب بن زهير:

شهرة الخبر وتداوُله بين المحدّثِين والإخباريين من أهل السِّيَرِ؛

أخرجه الحاكم النايسبوري وصححه في معرفة الصحابة من (المستدرك←) وصححه البيهقي في (دلائل النبوة) من طريق إبراهيم ابن المنذر← رواية الحجاج بن الرقيبة عن أبيه عن جده..؛

ما أخرجه الحاكم والبيهقي والزبير بن بكار في أخبار المدينة، من طريق علي بن زيد بن جدعان؛

ما أخرجه الحاكم والبيهقي عن موسى بن عقبة؛

ما أخرجه محمد بن سلام في طبقات الشعراء عن محمد بن سليمان عن يحي بن سعيد الأنصاري عن طريق سعيد بن المسيب.

قلنا: لما كان الأمر كذلك، نستطيع تأكيد الرأي بأن المقاييس المعتمدة لدى السيوطي في تلقيه قصيدة كعب بن زهير وتوثيقه لها، متأتية من جهة تكامل مستويات" الصحة في الرواية"، و"صحة السند المتصل"، و"الشهرة"، و"الإجماع". كما يمكن ربط احتكام جلال الدين السيوطي إلى الصحة أو الشهرة، بالتفاعل الذي يرغب في بنائه مع الروايات السابقة للقصيدة انطلاقا من شروط قرائية تأويلية خاصة.

مستوى النسبة:

يقول السيوطي:" ولا بد للمتصدي من هذه القصيدة قبل الخوض في شرحها من الإحاطة بثلاث مقاصد:

– المقصد الأول: في ترجمة ناظمها رضي الله تعالى عنه. (السيوطي، 2005، 101–102).

– المقصد الثاني: في سبب نظمه في هذه القصيدة.. (السيوطي، 2005، 103)

– المقصد الثالث: في بيان ترتيب هذه القصيدة وسياقتها التي سيقت عليها".(السيوطي، 2005، ص 111).

إن نسبة قصيدة شعرية ما إلى شاعر تتم المصادرة على أنه باثها الأصلي بدون منازع، لتعتبر من أشد وأعنت القضايا تمنعا على الضبط، وبخاصة بالنسبة للقراء المتفاعلين مع ديوان العرب في الفترة الإسلامية. ولعلنا لسنا في حاجة إلى تأكيد القول بأن القارئ الذي يروم استكناه الأسباب الضامرة خلف إشكالية نسبة نص إلى مبدعه الحقيقي، سيكون مضطرا إلى استعادة منطلقاته الأولى. نقصد استقصاء مراحل انتشار السماع بين المرسلين أنفسهم من جهة، وبين المرسلين والمتلقين من جهة ثانية؛ ثم تتبع صيرورة انتشار حلقات الرواية والتدوين واتساع دائرتيهما، وما استتبع هذه الممارسات من تعدد وتنوع في طبقات الرواة من جهة ثالثة. فقد ظهرت طبقة الشعراء الرواة، ورواة القبيلة ناهيك عن طبقتي الرواة المصلحين، والرواة الوضاعين للشعر المنتحلين له.(السيوطي، ج1. المزهر، بلا طبعة، ص 261).

إن قضية ظهور الوضع الذي كانت القصيدة الإسلامية عرضة له، لم تكن لتخفى، بأي شكل من الأشكال، على جلال الدين السيوطي، الذي قصر عنايته على قراءة الشعر العربي، قراءة تبتغي التحري والتدقيق في شأن نسبة أبيات شعرية، أو قصائد بكاملها إلى منشئيها الحقيقيين. نستحضر هنا، بعض كتبه، على سبيل التمثيل:" شرح لامية العجم للطغرائي"(ت 513)، بتدقيق أحمد علي حسن– الناشر مكتبة الآداب– القاهرة. و" نزهة الجلساء في أشعار النساء" (منشورات مكتبة القرآن، القاهرة.) و" شرح شواهد المغني" سالف الذكر.

والذي نعتقد به في هذا السياق، أن السيوطي كان أكثر اقتدارا على استيعاب هذه الإشكالية، في نسبة قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير. وهذا، فيما نتصور، شيء طبيعي ما دام أن أفق توقعه: (Jauss.1978.p. 49–52)

– يمتلك معرفة مسبقة بمجال المعايير الجمالية المتعلقة بالكتابة الشعرية العربية القديمة؛ هاته التي تنتمي إليها لامية كعب بن زهير، من حيث البناء والعمودية؛

ب– ويدرك أوجه التداخلات القائمة، بين نص كعب وباقي النصوص السابقة في تاريخ الشعرية العربية، ناهيك عن تقسيمه لتيمات اللامية، بدءا بالغزل وأنواعه، مرورا برمزية الناقة، وصولا إلى المدح والإعتذار".(السيوطي، 2005، ص 111– 116).

ت– ثم يدرك أوجه الاتصال والانفصال، بين الوظيفة الشعرية والوظيفة العملية للغة؛ أو بين العالم التخييلي والواقع اليومي في الكتابة الشعرية. ولا شك أن مجمل هذه المعطيات المرجعية، ساهمت إلى حد كبير في تشكيل وبناء السياق التاريخي الأدبي الذي ظهرت فيه قصيدة اللامية.

يقول السيوطي في ترجمته للشاعر كعب:" هو أبو المطرف كعب بن زهير بن أبي سلمى، واسمه ربيعة ابن رياح المزني بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر بن معد بن عدنان. قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر، رحمه الله تعالى:" وما وقع من انتهاء هذه النسبة إلى غطفان، مستندة أن زهيرا وبنيه كانت محلتهم بني غطفان، فوقع الظن به أنه منهم". قال:" وكان كعب رضي الله تعالى عنه من فحول

ISSN: 2663-5798 || Arab Journal for Scientific Publishing

شعراء العرب المجيدين، والمهرة المفلقين".(السيوطي، 2005، ص 101–102). ويقول:".. وكانت قصيدة كعب بن زهير المعروفة ببانت سعاد، هي أنفس المدائح عقدا".(السيوطي، 2005، ص 98).

إن ما نريد الإبانة عنه عبر هذا الإستدلال، هو أن تواصل السيوطي مع هذه القصيدة، وتفاعله الذي خرج فيه بموقف صريح قطع في إطاره نسبة القصيدة إلى كعب بن زهير، إنما كشف عن حجم القداسة التي أحاط بها الوحدات المعرفية التي تحكمت في رد فعل شيوخه في ما يخص العلاقة الممكن إقامتها، بين معرفة شخصية كعب وما تتميز به من صفات وخصائص، وبين الأبعاد الفنية والجمالية الكامنة في اللامية.

إن الرواية مثلا، عن الحافظ أبي عمر بن عبد البر، بوصفه نموذجا للأئمة الثقاة، تمثل ، من منظور السيوطي، سلطة توجيهية لا يجب أن تبطل بالتظني والحدس، بل هي حجة غير قابلة للمساءلة، وهذا ما يؤدي حتما إلى القول بأن أفق توقع السيوطي– القارئ، أفق لا يبرح المتوالية التاريخية للاجوبة القاطعة، التي صاغها نقاد وعلماء سابقون حيال نسبة القصيدة إلى كعب بن زهير.

وهذا، على ما يبدو، ما شجعه، بوصفه قارئا خبيرا يعاني ما عانه القراء السابقون، (lser.1985.p 66) على الاحتماء بسلطة نصين قرائيين سابقين؛ هما نص التبريزي(ت502)، ونص ابن هشام الأنصاري(761 ت) ، ومنحهما كل الأسبقية في رواية وتوثيق هذه القصيدة. ويمكننا نحن، في ضوء النقط التالية، أن نستبين حقيقة المعايير التي احتكم إليها السيوطي في هذه النسبة وفي ذلك التفضيل:

1–إن منهجية كل من التبريزي وابن هشام، مبنية بالأساس على نوع الذخيرة المعرفية المسبقة التي يتوفر عليها كل واحد منهما في مجال رواية الشعر وتوثيقه؛

2–إن تواصل السيوطي مع هذه القصيدة، وتفاعله الذي خرج فيه بموقف صريح قطع فيه بنسبة القصيدة إلى صاحبها كعب، لا يجب أن يصرفنا عن القول بأن إثباته القصيدة لهذا الشاعر، كان يطوي خلفه كثيرا من الاختلاف بخصوص متنها وعدد أبياتها وتراتبية أبياتها .

3–إن رد فعله استحضر تواتر تصورات القدماء إلى الحد الذي أبان فيه عن تناسخ وتطابق قراءته مع قراءة شيوخه، من أمثال التبريزي– وإن كانت تغايرها في الرواية الداخلية لبعض الأبيات لفظا أو تركيبا–(السيوطي، 2005، ص 23)، وابن هشام الأنصاري. فقد عمد إلى تحيين معاناة القراء السابقين، مما حتم عليه الاستجابة، بشكل تلقائي، لأفق تصوراتهم، وبالتالي ضعفت صورة مشاركته في إعادة بناء اللامية. حيث نلحظ ذلك جليا في مقارنة بسيطة بين المظان الآتية:

شرح قصيدة بانت سعاد لابن هشام الأنصاري، تحقيق محمد الصباح– 1996؛

شرح التبريزي على بانت سعاد لكعب بن زهير، قام على تحقيقه والتعليق عليه، عبد الرحيم يوسف الجمل، وهو من منشورات مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 2003.

وشرح شواهد المغني، لجلال الدين السيوطي. وقد اعتنى بطبعه، أحمد ظافر كوجان، وأخرجته لجنة التراث العربي في مجلدين، سنة 1966.

وكنه المراد في بيان بانت سعاد، لجلال الدين السيوطي، دراسة وتحقيق مصطفى عليان، ونشرته مؤسسة الرسالة ببيروت، في طبعة الأولى سنة 2005.

فما أجازه صاحب" مغني اللبيب عن كتب الأعاريب"، استحسنه السيوطي وارتضاه، وما دفعه واستهجنه، كان الأمر عند السيوطي كذلك. إنه بكلمة ثانية، بناء لأفق توقع توثيقي يقوم بالمحافظة على ما رسخه أفق توقع الذين سبقوا من الشيوخ العلماء، وبالتالي فهو يمتثل بشكل كبير، لسلطة أجهزتهم التوثيقية ومكوناتها. نقول هذا ونحن على بينة من أنه قد حصل أكثر من خلاف بين القراء الذين تعاقبوا على تلقي اللامية؛ وبخاصة حول الصورة التنظيمية التي يفترض أن تشكل ترتيب نص كعب بن زهير وتتابع أبياته. فهو في رواية عبد الملك بن هشام تسعة وخمسون بيتا، وفي رواية أبي البركات بن الأنباري، وفي رواية السكري لديوان كعب، خمسة وخمسون بيتا. وعلى هدي الإطار العددي والتنظيمي(سبعة وخمسون بيتا)، الذي رسمه ابن هشام لأبيات نص كعب سار السيوطي، بما رسخ عنده أنه يمثل الشكل التنظيمي"الأصل" أو الصورة التنظيمية "النموذج"، التي ارتضاها كعب لقوله الشعري وهو بين يدي الرسول الأكرم، صلى الله عليه وسلم. يقول السيوطي:".. وكانت قصيدة كعب بن زهير المعروفة ببانت سعاد، هي أنفس المدائح عقدا..، والناظم، رحمه الله تعالى، قد أتى في قصيدته قبل التخلص إلى المدح بالأنواع الأربعة،(السيوطي، 2005، ص 112)؛ وذلك أن القصيدة اشتملت على سبعة وخمسين بيتا..، ثم خرج إلى مدح المهاجرين من الصحابة.. في البيت التاسع والأربعين بقوله:" في فتية من قريش.. البيت"، واستطرد في ذلك إلى آخر البيت السابع والخمسين، وهو آخر القصيدة". (اليسيوطي، 2005، ص 98، 112، 114).

المجال الدلالي للقول الشعري وعلاقته بالتفاعلات المرجعية.

يفترض التلقي الجمالي في علاقته بمفهوم أفق التوقع– كما يتصور هانس روبيرت ياوس– مسارا زمنيا متتابعا، يسند القراء في تعيين الكيفية التي يبنون من خلالها، خصوصية الفهم، والتأويل، والتطبيق التاريخي لنص فني ذي طبيعة جمالية. ويمكن تعيينه كالآتي:

زمن الإدراك الجمالي، وهو زمن إعجاب فني، وإحساس بدهشة يبني عبرها القارئ أفقا لقراءة تتميز بالتذوقية والانطباعية.

زمن التأويل الاستعادي، وهو زمن تسويغ ذلك الإعجاب الفني وتلك الدهشة الجمالية، عبر قراءة إرجاعية تصبح معها التجربة الجمالية أفقا للفهم والتأويل. هذا، ولما لم يكن باستطاعة القارئ إدراك الدلالة العامة للنص الذي يؤول، فإنه يميل إلى انتهاج قراءة إرجاعية4، تقلب النهاية إلى بداية، وهذا إجراء يجعل التأويل، ولا شك، قادرا على أن يؤسس كلا دالا ومتلاحما، من خلال التخمينات والتوقعات والأسئلة التي تظل منفتحة.(Jauss.1978.p. 49–52)

الزمن التاريخي، وهو زمن خاص بالقراءة التاريخية المتعاقبة؛ حيث الانفتاح على الأفق الحقيقي للتجربة الأدبية ومقارنتها بتجربة الآخرين. لهذا، فالمؤول هنا، يظل حريصا على إعادة بناء السياق التاريخي–الأدبي، الذي ظهرت فيه القصيدة الشعرية مثلا، كاشفا عن بعدها الزمني. إن الفهم التاريخي، يؤكد ياوس،" لا يكمن في إعادة بناء الماضي، بل فيما يظهره من بعد زمني للقصيدة الشعرية، والذي تم التغاضي عنه من قبل القراءة الأولى والثانية. أي بالتمييز بين الفهم الماضي والأفق المعاصر، وإظهار كيف أن معنى القصيدة الشعرية عرف امتدادا تاريخيا من خلال تفاعل الوقع والتلقي.. يقول ياوس:" يفترض تحليل الإجراء التأويلي إلى أزمنته الثلاثة، أن يكون تقسيم

4- Pour une herméneutique littéraire - 439P : 364 -

هذه القراءات تقسيما صوريا إلى حد ما. وهي الطريقة المثلى التي يمكن أن تكون عليها خصوصية الفهم، والتأويل، والتطبيق التاريخي لنص فني ذي طبيعة جمالية ".(Jauss. 1988.p 357–358.)

فإذا كان الشأن على هذه الصورة التنظيرية، كنا أقدر على توصيف الجهاز القرائي الذي اعتمده السيوطي في تلقيه للامية كعب بن زهير؛ وذلك من خلال الاعتماد على نصوص تمثيلية دالة من اللامية ذاتها.

" قال جلال الدين السيوطي: " قال الشاعر:

في فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زُولوا

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل

" قريش": اسم قبيلة، وقد اختلف في أبيها، فذهب قوم إلى أنه النضر ابن كنانة، والراجح عند أهل النسب أنه فِهر بن مالك بن النضر المذكور..، قوله: " لما أَسلموا" أي: دخلوا في الإسلام، وقوله:" زولوا" أي هاجروا عن مكة إلى المدينة.. والمعنى: أنه لما أسلم بمكة من قريش مَن أسلم، اختاروا الهجرة من أوطانهم بمكة والخروج إلى غيرها من البلدان، ليفوزوا بينهم. وقد اتفق المؤرخون وأصحاب السير؛ أن أول من أسلم خديجة بنت خويلد زوج النبي، صلى الله عليه وسلم، ثم اختلف فيمن أسلم بعدها.. ومعنى البيت: أنهم زالوا من بطن مكة، ولم يكن فيهم من هذه صفته، بل كانوا أقوياء، وسلاح فرسان عند اللقاء.. واعلم أن للمؤمنين هجرتين؛ الأولى: إلى أرض الحبشة، وهاجر منهم جماعة.. والهجرة الثانية: إلى المدينة الشريفة، وهي التي بني عليها التاريخ الإسلامي". (السيوطي، 2005، ص 401، 404، 406، 407).

إن المتأمل في حقيقة التناص القائم، بين التركيب الشعري في نص كعب بن زهير، وهذه الأخبار التاريخية–الاجتماعية، سيستشعر، ولا شك، صعوبة كبرى في معرفة الدوافع التي كانت تلزم السيوطي المؤول، بتحكيم" ذاكرة" النص الخارجية في قراءة الداخل نصي، وذلك قياسا إلى غريزته النقدية، في التمييز بين لغة الشعر ولغة الإبلاغ والواقع. فالسيوطي، هنا، لا يكلف نفسه، في اللحظة التي جرد فيها من ذاته صورة لنفسه المتلقية، وصورة لكعب بن زهير المبدع، عناء الفصل بين وضعيتين:

– وضعية الشاعر كعب؛ الذي يعايش خروج عدد كبير ممن أسلموا بمكة إلى أوطان أخرى؛ وما استتبع ذلك من المشقة العظيمة؛

– وبين وضعية الشاعر كعب؛ الذي يتصور" واقعة الخروج"، بنحو من التصور، فيتفاعل معها بالشكل الذي يؤدي إلى إعادة إنتاجها في سياق شعري، لا يمكن أن يتناص تناصا سلبيا مع معطيات خارجية، جهدت في رسم صورة " بطولة كاملة" يتصف بها" المؤمنون"؛ وبخاصة إذا ما قورنت بأعداء الشاعر من الكفار.

إن الإشكال الكبير الذي واجهته قراءة السيوطي، حيال المعاني الشعرية، هو أنها لم تستطع أن تتخلى عن إسقاطاتها وافتراضاتها القبلية؛ فكان أن سوغت إعجابها الفني بشروط الإثارة الكامنة في أبيات كعب بن زهير، بما يتساهم مباشرة مع المعايير المشكلة للمرجعية الشعرية الواقعية. (انظر، طايعي، 2022، ص105 وما بعدها)

ثم إن التفاعل النصي الذي بناه كعب بن زهير، بين الصناعة الشعرية وذخيرتها التاريخية، لا يجب أن يحملنا على الظن، أنه اختزل المحاكاة إلى أحداث أو أفعال حسية ملموسة، بحيث لم يزد عن أن " نقلها" إلى مستوى اللغة.(بلمليح، 1995، ص 372. 374)، بل إنه، وهو الشاعر الذي" حصل له الإمداد النبوي والإسعاد المحمدي" (السيوطي، 2005، ص 107. 108)، يمتلك تفسيح نظر يمكنه من امتصاص وتطويع لهاتيك الذخيرة التاريخية، وبالنتيجة يضمن تأويلا تخيليا لها.

صحيح أن الذي ينتدب نفسه لتأويل شعرية هذه الرسالة، من خلال تحقيق معانيها، لابد أن يكون رد فعله مبنيا على أفق توقع – معدا سلفا، يتناص مع خلفية مرجعية، تعتمد " قاعدة جمع المعلومات والأخبار"، من خلال تجميع "بيوغرافي" أو" مقاربة سيرية"، تستقصي مجمل مظاهر حياة كعب بن زهير، المادية، والعقلية، والاجتماعية، كتوضيح علاقة الأخوة القائمة بين كعب وبجير، ثم بين كعب ورجل من جهينة؛ هذا الذي كانت بينه وبين كعب معرفة مكنته من دخول المسجد. ثم تعيين علاقة كعب بشعراء قيش، كابن الزبعرى وهبيرة بن وهب، وبيان أوجه التوتر والخلاف، بين كعب وقبيلة مزينة.، (السيوطي، 2005، ص 108). وعموما، حصر جوانب القوة والضعف في شخصيته؛ وهو ما سيحقق تناص المتخيل الشعري، الكامن في بردة كعب بن زهير" النص الفرعي–الدوني–Hyportexte"، بما يناظره من ذخيرة تاريخية، لكنها متعالية "Hypertexte" (Genette.1982.p. 11–12) مستوحاة من حدث تاريخي. يقول السيوطي:"

– أن للمؤمنين هجرتين: الأولى" إلى أرض الحبشة، فهاجر منهم جماعة، وأقاموا في جوار النجاشي، وعاملهم بالكرامة، وكان من جملة من هاجر منهم إلى أرض الحبشة على التتابع ثلاثة وثمانون رجلا، منهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعثمان بن مظعون، وعبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن عوف، جعفر بن أبي طالب، وجماعة من النسوة..

– والهجرة الثانية، إلى المدينة الشريفة؛ وهي التي بني عليها التاريخ الإسلامي،(السيوطي، 2005، ص 401–404). وكان ابتداء أمرها أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان يعرض نفسه على القبائل في موسم الحج ويدعوهم إلى الله تعالى..، وأمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فخرجوا متتابعين..، ثم خرج النبي، صلى الله عليه وسلم، من مكة ليلا ومعه أبو بكر الصديق.." (السيوطي، 2005، ص407– 409).

إن هذه المعطيات، ستدفع القارئ إلى الاعتقاد، بأن لغة الوقائع التاريخية، هي التي تتحكم في المجال الدلالي لأبيات كعب، بل إنه سيوقعها موقعها، وينزلها، تداخليا، منزلتها. وفي هذا الاجتهاد القرائي كبير تحقيق لكن يستلزم كبير توضيح. هو أن ذلك الاجتهاد سيربط ربطا قاسيا ومتشددا، بين أفق اللغة اليومية، التي تفصل وتدقق في كل جزئيات علاقة الرسول، صلى الله عليه وسلم، بكل من كعب الشاعر، والمؤمنين من المهاجرين من ناحية. وأفق اللغة الشعرية التي– وإن كانت تمتص، وتنقل، وتحاكي، كثيرا مما هو ثابت في واقعة الهجرة، أو في هدر دم كعب، وكيف عفا عنه الرسول الكريم– فإنها تتجه نحو إعادة تشكيلها وتوظيفها بصورة جديدة؛ هي أوسع بكثير من هذا المعنى الحسي الذي ذكره السيوطي جلال الدين. (–Zima– p139.1985)

إن هذا التعلق النصي، بين هذه الأحداث والأخبار، وبين المجال الدلالي الذي يحكم البيت(1)، والبيت (21)، والبيت (43)، والبيت (51): (السيوطي، 2005، ص 21–23)

بانت سعادُ، فقلبي اليوم متبول متيم إثرها، لم يفد، مكبول

ISSN: 2663-5798 || Arab Journal for Scientific Publishing

يَمشي القُراد عليها ثم يُزلقُه منها لبان، وأقراب زهاليل

حتى وضعتُ يميني، لا أنازعه في كفِّ ذي نَقِمات، قيله القيل

في فتية من قريش، قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا: زُولُوا

لا يؤكد إلا قاعدة حمل التركيب الشعري، في مجموع قصيدة اللامية، قياسا على التوجيهات التاريخية. وهو ما يدفعنا إلى الاعتقاد، بأننا نحمل ما اشترك في معرفته الشاعر كعب بن زهير وعامة الناس، وما كان معروفا لدى الاخباريين والنسابة آنئذ، على منوال اللغة اليومية المتداولة. بعبارة أخرى: إنها قراءة مرجعية لا تستطيع ان تبني مقصدية الأبيات الأربعة بخاصة، إلا باستحضارها للمصدر الواقعي الذي أنتجها، وكأن الأمر في بناء القول الشعري لدى كعب، متوقف على ممارسة يومية أو حقيقة فعلية تتم في مستوى الحياة الواقعية. (بلمليح، 1995، ص 318).

التفاعلات المرجعية والمعيار الشعري.

يقول السيوطي بخصوص المقصد الثالث الواجب التعرف إليه قبل تفسير لامية كعب بن زهير:" اعلم أنه كان عادة شعراء العرب، أنهم إذا أتوا بقصيدة مدح افتتحوها بالنسيب، وهو المعبر عنه بالغزل، وهو عند المحققين من أهل الأدب يشتمل على أربعة أنواع.(السيوطي، 2005، ص 111–112).ثم ذكر(أي الشاعر) بُعْدَ ما بينه وبينها من المسافة في البيت الثالث عشر، ثم ذكر أنه لا يبلغه إليها إلا ناقة من صفاتها كذا وكذا، وأطال في وصفها، على عادة العرب في ذلك." (السيوطي، 2005، ص 113).

ويقول في تفسيره للبيت الأول:".. وذلك أنه لما كان مبنى ابتداء هذه القصيدة على الغزل والنسيب، جريا على عادة أكثر الشعراء في ابتداء قصائد المدح بمثل ذلك..، صدّر كلامه بذكر الفراق المقتضي لذلك..، لإن قيل كيف ساغ أن يتغزل بامرأة في قصيدة أنشدها بين يدي النبي، صلى الله عليه وسلم،؟ فالجواب: أنه جرى في ذلك على عادة العرب في أشعارهم وسماع النبي ذلك، وإقراره عليه، دليل الجواز.. ". (السيوطي، 2005، ص 123، 134).

ويقول في تفسيره للبيت الثاني:".. وكلام البيت يحتمل أمرين، أحدهما: أن يريد به كسر الجفون على عادة الشعراء في مثل ذلك، الثاني: أن يريد به الحياء والخفر.. وخص التشبيه بالظبي جريا على عادة العرب في التشبيه بها".(السيوطي، 2005، ص 140–141).

إن الذي نرغب إليه من هذه النماذج التفسيرية، يتحدد بالأساس في أن فعل التواصل، المقام بين كعب بن زهير والسيوطي من ناحية، ثم ما ترتب من تفاعل هذا الأخير عبر رد فعله مع الطاقات الفنية المتسترة خلف مكونات الأبيات المؤولة من ناحية ثانية؛ لا يمكن أن تضمن تحققها الفعلي والإيجابي، إلا من خلال قياسها برسوم قائمة في أمثلة يعمل عليها الشعراء والنقاد على حد سواء.(العسكري، 1971، ص 75). وليس الرسوم القائمة، المنتصبة شيئا آخر، سوى:

المعايير أو النماذج التي يضطر كعب بن زهير إلى الاحتكام إلى سلطتها، في بناء اللامية؛

والمعايير أو النماذج التي يضطر السيوطي إلى الاحتكام إلى سلطتها، في تفاعله الجمالي مع اللامية؛

إن المعيار عند الأصوليين، هو الظرف المساوي للمظروف، كالوقت للصلاة. والمعيار عند المنطقيين نموذج مشخص، أو مقياس مجرد، لما ينبغي أن يكون عليه الشيء؛ ويرادفه العيار، وهو ما جعل قياسا ونظاما للشيء، والقاعدة، وهي القضية الكلية المنطبقة على جميع جزئياتها، أو النموذج المثالي الذي تنسب إليه أحكام القيم. فالمعيار في علم المجال، هو مقياس الحكم على الإنتاج الفني. (صليبا، 1973، مادة عير).

لقد كانت معيارية النموذج أو المثال، حاضرة عند السيوطي إلى جانب مفاهيم وأدوات الإجرائية أخرى أسست جهاز تلقيه لقصيدة كعب. وعليه، فإن التدقيق في المراحل التكوينية للقصيدة عند العرب، في هذا المستوى من قراءة السيوطي، يمنحنا صورة معيارية لا تكاد تخرج عن صيانة العرف والعادة، ومحاولة الذود عنهما من أي شذوذ، يمكن أن تمارسه لغة الصناعة الشعرية لدى كعب بن زهير.(طايعي، 2007، ص 156).

هكذا يظهر أن محصول التخيل الشعري الذي بناه الشاعر كعب بن زهير، عن سمات الناقة التي ستبلغه، يتحدد في مستوى ما يستحسن من نعوتها وأوصافها، استجماعا لملامح الخفة والسرعة، والقوة والصلابة، واكتمال التكوين ضخامة؛ في نفي قوي لصفة الترهل والثقل؛ كل ذلك تؤديه الألفاظ والتراكيب، من قبيل: العتاق، والنجيبات، والمراسيل، وعزافرة، ونضاخة الزفرى، وغلباء، ووجناء، وضخم مقلدها، ومذكرة..، وهذه الأوصاف التي اختصت بها ناقة كعب دون سواها، يمكن أن نجعلها تتحرك ضمن نصوص شعرية أخرى، مماثلة لها، نرصد حدودها في ثوابت ومتغيرات القراءة المعيارية.

والشيء نفسه يمكن أن يقال، في أن قياس شعرية المتخيل في قول كعب:

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

رهين عند السيوطي، بمدى قدرة كعب على العب من المشترك العام: اللفظي والمعنوي، والإلمام به في رسم صورة لامرأة– حبيبة، تُستَجمع ملامح جمالها في " كسر الجفون وفتورها "، قصدا إلى بيان حيائها وخفرها؛ وذلك جريا "على عادة الشعراء العرب في تشبيه المرأة بالظبي. بعبارة ثانية: إن كعب بن زهير، لا يمكنه أن يؤثث لمعيار ناقة نموذجية، أو حبيبة عفيفة، إلا إذا أرغم أناه الشاعرة، على السير وفق مقتضيات معيار "السنن الجمعي"؛ إذ لا فضل له يذكر– وإن كان ممن تعتبر كتابته الشعرية أفقا تقاس عليه باقي الكتابات في مدح محمد، صلى الله عليه وسلم،– في تجويد صورة ناقته، أو حبيبته الطاهرة، إن هو خرج عن سنن العرب وأعرافهم في الكتابة الشعرية.

إن القضية الكبرى التي واجهتها القراءة المعيارية، بخصوص بناء المعاني الشعرية، هو أنها لم تستطع أن تتخلى عن إسقاطاتها وافتراضاتها القبلية؛ فكان أن سوغت إعجابها الفني بشروط الإثارة الكامنة في الصورة التشبيهية الحسية، التي شكلها كعب لناقته أو حبيبته الظاعنة، بما يتماثل حرفيا والمعايير المشكلة للمرجعية الشعرية المتوارثة لدى الجاهليين بخاصة.

قال الشاعر كعب بن زهير:"

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهـــــل بالراح معلول

وقد فسر السيوطي هذا البيت قائلا:" والمنهل بضم الميم وفتح الهاء: الشارب مرة أولى، والراح: من أسماء الخمر. والمعلول: الشارب مرة ثانية. والأصل في ذلك؛ أن الإبل إذا وردت الماء وشربت نُحّيت عنه إلى مكان تقف فيه حتى يشرَب غيرُها، ثم تعاد إلى الماء فتشرب ثانيا، فيقال: شربت الإبل علا بعد نَهْل".(السيوطي، 2005، ص 153).

فنلاحظ أن كعب بن زهير، لا يمكنه، من منظور أفق القراءة المعيارية هذه، أن يستجيز لسعاد، صورة أخرى خارج الأقيسة التي رسمتها، وقعدت لها اللغة الأصل: لغة الواقع، والمعيش واليومي: لهذا فحظ حبيبة الشاعر، من الجمال، بقدر توفر مبسمها على أسنان ذات ماء وبريق، وذات بياض ورقة. ولما كانت الغنة وغض الطرف وكحل العين مما يستحسن في الظباء المستحسنة في جنس الوحش، شبه كعب بن زهير سعادَ بظبي. وهذه كلها مما يحتاج في معرفتها، إلى قارئ خبير،(izer.1985.p.66) Lecteur informé له إدراك عميق باللغة التي يتحدث بها بيت كعب، ثم إلمام واسع بمعرفة المجمع المعجمي الذي وضعته العرب، ليكون دليل صناعة شعرية، دالة هي نفسها على سمات الجمال في الأنثى العربية.

وإذا تقرر هذا، فالمتبادر إلى الفهم، من جهة أخرى، أن مرحلة تحصيل المعرفة بالمقاصد الكامنة وراء توظيف الذات الشاعرة لصورة " ثغر كأنه منهل بالراح معلول"، لم تتحقق عند السيوطي المتلقي، إلا من خلال عملية حفر لغوي، تمكن خلالها من العثور على الأصل الأولي، لمعنى" العلل" ومعنى" النهل"؛ أي أن السيوطي ذهب إلى بناء أفق توقع لغوي حسي، من خلاله تم تعيين الأصول الحرفية لكل وحدة إيحائية في القول الشعري. وهو ما جعل معناها الثاني معنى لغويا واحدا، عدل عن لفظه الأصلي، واستعملت الوحدة الايحائية في مكانه. (بلمليح، 1995، ص 333 و 347).

وهذا الذي ذهبنا إليه هنا، يتقاطع تقاطعا شديدا، مع قراءة السيوطي لقول كعب بن زهير:

شجت بذي شبم من ماء محنية صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

واعلم أن الخمر إذا بقيت على صرافتها من غير خلط ماء بها قيل صرف، فإن صُب عليها الماء، قيل: مُزجت..

فإن قيل: لأي معنى اختار ذكر الممزوجة في كلامه على الصَّرفة، حيث قال" شُجّت" ؟ فالجواب من وجهين: الوجه الأول: أن الصرف من حيث الطب حار يابس، والممزوج حار رطب ، فالمزج ينقلها من اليبوسة إلى الرطوبة، ويردها إلى التعديل بعد الإفراط. الثاني: أن الصرف قد يؤدي إلى زوال الشعور، وذهاب الإحساس.

معنى هذا، أن الذخيرة اللغوية تمثل المكون التخييلي الباني للخطاب الشعري عند كعب بن زهير، وهي المحققة لممكناته التأويلية لدى جلال الدين السيوطي. فإدراك السيوطي لطبيعة البناء التخييلي في هذا البيت، استلزم منه حفرا لغويا دقيقا، أهله لبناء علاقة تواصلية، بينه وبين التراكيب الشعرية البانية لبيت كعب. أي أن تلك العلاقة استندت إلى المرجعية اللغوية المشتركة بين الشاعر والسيوطي. إنها أرضية لغوية مشتركة يتواضعان عليها، ويدركان أصولها والدلالات التي تحتويها؛

إن جلال الدين السيوطي لا يستطيع أن يسوغ دهشته الجمالية، لحظة قراءته الانطباعية التذوقية لنص كعب بن زهير، إلا من خارج نص كعب نفسه. ولهذا كان تأويله للمجال التصوري التخييلي في كثير من أبيات اللامية، تأويلا يتناص مع سياق لغوي وضعي، يوصل بالضرورة إلى تبرير دهته الفنية في ضور أفق انتظار لغوي جاهز. وهو أفق يعود في أبرز مكوناته، إلى ذاكرة معجمية توازي الواقع وتتماهى معه. (بلمليح، 1995، ص 367).

هذا، وإذا كان صحيحا أن السيوطي انتقل بوحدات اللغة المتماثلة والمتشابهة في الواقع، من كونها وحدات ثابتة، تتناسب فيما بينها تناسبا عقليا وماديا – بحسب العرف والعادة– إلى كونها ذات دلالات تصورية وتخيلية، بعيدة كل البعد عن أن تكون، تمثيلا أو نقلا أو محاكاة أمينة ومباشرة لأفق التوقع الذي بناه الشاعر كعب بن زهير، في علاقته النفسية والوجدانية بالعالم. فإنه في الآن ذاته، قر عندنا أنه لا يمكن أن تُتصور قراءته حدثا فنيا، يمتلك زمنه التاريخي، خارج أفق السننية الشعرية العربية وثوابتها الراسخة. إنها سننية رسمها المدرك اللغوي الحسي عند السيوطي، وعن الأشياء في الوجود الواقعي. إن الذي قر عندنا، هو أن السيوطي، رسخ في تلقيه للامية، فإن الباث الأصلي للرسالة الشعرية عندما يماثل، بين المعاني، جاعلا بعضها في تساهم مع بعض، فهو في الحقيقة، يطلب من قارئه المفترض ألا يماثل بشكل دقيق وحرفي، بين التراكيب اللغوية التي تنخلها في كتابته الشعرية، والمعطيات الخارج نصية؛ بل عليه أن ينتقل بوحدات اللغة المتماثلة والمتشابهة في الواقع، من كونها وحدات ثابتة، تتناسب فيما بينها تناسبا عقليا وماديا – بحسب العرف والعادة– إلى كونها ذات دلالات تصورية وتخيلية، بعيدة كل البعد عن أن تكون، تمثيلا أو نقلا أو محاكاة أمينة ومباشرة لأفق التوقع الذي يبنيه الشاعر، في علاقته النفسية والوجدانية بالعالم.(طايعي، 2007، ص 142).

الخاتمة:

ثمة نتائج توصلت إليها الدراسة، يمكن حصر أبرزها في النقط الآتي:

خلصت الدراسة إلى أن فهما معمقا لحضور مكون التناص في النصوص الشعرية، مرتبط، أولا، بإدراك المرجعيات التأسيسية المختلفة، التي يجري فيها بناء الأبعاد والرؤى الجمالية لظاهرة تفاعل النصوص الشعرية مع غيرها من نصوص الوجود. ومحوج، ثانيا، إلى فهم مضاعف للعلاقة التفاعلية، بين الباث الأصلي للرسالة الشعرية ومتلقيها.

إن الذي ينظر نظر تدقيق إلى المنهاج الذي يسلكه " تحقق" المعاني الشعرية لدى الشاعر كعب بن زهير وجلال الدين السيوطي، لن يجد كبير نصب في أن يربطه بالتجربة المسبقة التي يتوفر عليها كل واحد منهما في مجال الكتابة الشعرية قبل بنائه للامية وقبل تلقيها.

إن التأويل الشعري الذي حققه جلال الدين السيوطي، هنا، مبني على تقدير أشكال تفاعل نصوص الكتابة الشعرية العربية، بغيرها من النصوص والمعطيات الخارج نصية؛ التاريخية والسياسية والسوسيوثقافية بعامة. يقود كل هذا إلى القول بأن السيوطي مؤول مُبَنْيَن، بصورة ضمنية، في مجموع النظام الدلالي الذي يتحكم في اللامية؛ هاته التي ساهم في إنتاج معانيها، وأبان عن شرائطها ومنطلقاتها التأسيسية.

إن جلال الدين السيوطي لم يستطيع أن يسوغ دهشته الجمالية، لحظة قراءته الانطباعية التذوقية لنص كعب بن زهير، إلا من خارج نص كعب نفسه. ولهذا كان تأويله للمجال التصوري التخييلي في كثير من أبيات اللامية، تأويلا يتناص مع سياق لغوي وضعي، يوصل بالضرورة إلى تبرير دهشته الفنية في ضوء أفق انتظار لغوي جاهز. وهو أفق يعود في أبرز مكوناته، إلى ذاكرة معجمية توازي الواقع وتتماهى معه.

استحضر السيوطي في رد فعله الجمالي، تواتر تصورات القدماء إلى الحد الذي أبان فيه عن تناسخ وتطابق قراءته مع قراءة شيوخه، من أمثال التبريزي وابن هشام الأنصاري. فقد عمد إلى تحيين معاناة القراء السابقين، مما حتم عليه الاستجابة، بشكل تلقائي، لأفق تصوراتهم، وبالتالي ضعفت صورة مشاركته في إعادة بناء اللامية.

ظلت معيارية النموذج أوالمثال، حاضرة عند السيوطي، إلى جانب مفاهيم وأدوات الإجرائية أخرى أسست جهاز تلقيه لقصيدة كعب. لذلك خلصت الدراسة إلى أن التدقيق في المراحل التكوينية للقصيدة عند العرب، في هذا المستوى من قراءة السيوطي، منحنا صورة معيارية لا تكاد تخرج عن صيانة العرف والعادة، ومحاولة الذود عنهما من أي شذوذ، يمكن أن تمارسه لغة الصناعة الشعرية عند كعب بن زهير.

التوصيات.

إن الذي نطمئن إليه، هو أن القراءة التراثية لقصيدة كعب بن زهير، لا تلغي ما يمكن أن تبتدعه وترسخه القراءة الحداثية لها. ذلك أن مقوم القراءة الأولى، وبتتبع التحقيب التأويلي الذي مرت منه القصيدة، يجعل منها نصا معاصرا لمجموع آفاق التوقعات التي بنيت بإزائه. بينما مقوم القراءة الثانية، فيستهدف جعل قصيدة كعب حاضرة فينا ومعنا. لكن عبر إدراك عميق لأوجه استثمار منجزين نقديين. يتمثل أولاهما، في النقد العربي القديم. ويتمثل ثانيهما، في اجتهادات الفكر النقد الأدبي المعاصر. آنئذ نستطيع أن ندعي بأننا نقرأ التراث بالحداثة، ونحن أكثر تجذيرا للوعي بخصوصية الشعر العربي القديم.

المصادر والمراجع

أديوان، محمد، (2004)، قضايا النقد الأدبي عند حازم القرطاجني، منشورات كلية الآداب، الرباط، ط 1.

الأسد، ناصر الدين، (1978)، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف، مصر، ط 5.

الإفريقي، ابن منظور، (1988)، لسان العرب.(أعاد بناءه على الحرف الأول، يوسف خياط)، دار الجيل ودار لسان العرب، بيروت.(بلا طبعة).

بلمليح، إدريس(1995)، المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام. منشورات كلية الآداب، ط1، الرباط.

الخطيب، إبراهيم، (1987)، القارئ المفترض، مجلة آفاق، ع 6، منشورات، اتحاد كتاب المغرب.

السيوطي، جلال الدين،(بلا طبعة). شرح شواهد المغني، اعتنى بطبعه، أحمد ظافر كوجان، لجنة التراث العربي، مصر.

السيوطي، جلال الدين، (2005)، كنه المراد في بيان بانت سعاد، دراسة وتحقيق، مصطفى عليان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1.

صليبا، جميل، (1973)، المعجم الفلسفي ج 2، دار الكاتب اللبناني، بيروت.

طايعي، أحمد،(2007)، القراءة بالمماثلة في الشعرية العربية القديمة، منشورات زاوية، الرباط، ط1. الرباط.

طايعي، أحمد،(2009)، نص القراءة ادى علماء الغرب الاسلامي، منشورات طوب بري، الرباط، ط1.

طايعي، أحمد، (2022)، الشعر العربي مجاري التلقي ومستقرات التأويل، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط 1، عمان، الأردن.

عليان،، مصطفى،(1992)، رواية الشعر الأندلسي، مقال ضمن ندوة: ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية، منشورات كلية الآداب، تطوان.

العسكري، أبو هلال، (1971)، الصناعين، تحقيق، البجاوي، محمد علي، وأبوالفضل إبراهيم، محمد، دار الفكر العربي، القاهرة، ط 2

القرطاجني، حازم، (1981)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بلخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

مفتاح، محمد، (1995)، من قضايا التلقي والتأويل، عمل مشترك، منشورات كلية الآداب. الرباط

يقطين سعيد،(2003)، مجلة عالم المعرفة، العدد الثاني.

Iser, W .(1985) .L'acte de lecture Théorie de l'effet esthétique. Bruxelles ,Mardaga.

Jauss, H. R. (1978) .Pour une Esthétique de la réception. Paris. Gallimard.

Jauss, H. R(1988) .Pour une herméneutique littéraire, Paris .Gallimard

Genette, Gérard.(1982) .Palimpsestes, La Littérature au second degré . paris .Seuil.

.Zima, P.(1985).Manuel de sociocritique. paris.Picard.

****

"Ancient Arabic poetry Insights into reference interactions according to Jalal al-Din al-Suyuti"

Dr. Ahmed Taye

Professor of Arabic poetry and contemporary critical approaches

Interdisciplinary College of Rachidia/ Moulay Ismail University (Morocco)

Abstract:

There is no doubt that Ka'b bin Zuhair's poem "Bant Souad's" has responded to various readings throughout its long history of reception, with the multiplicity of types of readers and the diversity of their aesthetic questions. At each historical station, it built its own horizon of expectation. Therefore, we based our study on a hypothesis through which we imagine the role played by The text of critical reading, according to Jalal al-Din al-Suyuti (d. 911 AH), in producing and reproducing the text of poetic writing according to Ka`b ibn Zuhair. For this reason, the methodological formalism of the study came, consisting of two reading devices, which it was advisable to look at at two complementary and harmonious levels. They are: the level of documentary fossil reading, the level of the semantic field of poetic statement, and their relationship to referential interactions. The study concluded that Al-Suyuti's poetic reading experience does not lie in the Lamaite text viewed in its uniqueness, but in his extra-

textual repertoire, which includes social, historical and legal values and standards, and their cultural contexts in general.

Keywords: Arabic poetry, interactions, reference, reading, documentation, Al-Suyuti.